2- كلمات قدوة للشهيد القائد عمر المختار

بقلم: الدكتورة علا آغا
دكتوراه في اللغة العربية وآدابها
com.hotmail@aga.Ola

«نحن لا نستسلم ...

ننتصر أو نموت ...

وهذه ليست النهاية ...

بل سيكون عليكم أن تحاربوا الجيل القادم والأجيال التي تليه...

أما أنا ...فإن عمري أطول من عمر شانقي».

إنها آخر كلمات شريف مقاوم أصيل، عربي الهوى، ليبي المنشأ، ذلك الشيخ الكبير الذي سطر تاريخ الحياة والانتصار بدمه عبر حرب طويلة، أعادت الحياة لوطنه الغالي. إنه عمر المختارالذي لُقِّبَ بأسد الصحراء بعد أن استطاع الوقوف أمام دول عظمى يحاربها عشرات السنين عندما جاءت لتغتصب أرضه رافضا الاستسلام والإغراء بالمال والمناصب معلنا الجهاد في صمود وعناد.

ولد ذلك البطل سنة 1862، في قرية تسمى زاوية جنزور على الساحل الشرقي لليبيا وترعرع في بيت عز وكرم، تحيط به شهامة المسلمين وأخلاقهم الرفيعة، وصفاتهم الحميدة، التي استمدوها من تعاليم الحركة السنوسية القائمة على كتاب الله وسنة رسوله. وقد قلد في بداية حياته العديد من المناصب؛ ففي سنة 1897 أصبح بتكليف من المهدي السنوسي شيخا (بمثابة والٍ)، لبلدة تسمى زاوية القصور، التي تقع بمنطقة الجبل الأخضر (شرق)، كان فيها منصفا حكيمًا لما يعلمه من فنون فضّ النزاعات بين الناس.

ثم تحول المختار من واعظ وشيخ وعالم ديني إلى مقاتل لا يشق له غبار، بعد أن جمع حوله العديد من الشبان الثائرين ضد الظلم والإستبداد. فقد شارك في القتال الذي نشب بين السنوسية والفرنسيين في المناطق الجنوبية في السودان، إضافة إلى قتال الفرنسيين عندما بدأ استعمارهم لتشاد عام 1900.

ودخل عمر المختار التاريخ من أوسع أبوابه بإعلان إيطاليا عام 1911 الحرب على الدولة العثمانية، إذ كان لقبه «شيخ المجاهدين»، وكان عائدا من مدينة الكفرة (جنوب شرق)، ليسارع على الفور إلى زاوية القصور لتجنيد أهلها.

ومنذ أن أعلنت إيطالية ليبيا مستعمرة لها عام 1912 قاد عمر المختار المقاومة الليبية ضد المحتل الإيطالي، وطوال هذه الفترة الممتدة لـ 20 عامًا (1912. 1931) وحتى إعدامه، لم يغب عمر المختار عن ساحات القتال، وقد أنزل بهم الكثير من الخسائر بعد معارك كرّ وفرّ، تركز معظمها على مدينة درنة (شمال شرق)، منها معركة «يوم الجمعة» 16 مايو/ أيار 1913، دامت يومين، وانتهت بمقتل 70 جنديا إيطاليا وإصابة نحو 400 آخرين.

كما قاد في. أكتوبر/ تشرين الأول من العام نفسه معركة «بو شمال» في منطقة عين مارة، وفي فبراير عام 1914 معارك «أم شخنب» و»شلظيمة» و»الزويتينة»، كان خلالها المختار يتنقل بين جبهات القتال.

ولا ننسى موقف المختار، موقف الأبطال الأحرار، من المفاوضات التي دعاه إليها قريسياني بعد أن استولت قواته الباغية على عدد من المناطق في سنة 1928م. فلطالما كان مثال القائد العربي والمجاهد القوي الذي حظي بتأييد شعبي كبير وربى تلاميذه على التسلح بالعلم والصبر والصمود في ملاقاتهم للأعداء من أجل إعلاء كلمة الله، وتحرير الأرض والذود عن حياض وطنه وأمته، وحماية المقدسات، والدفاع عن العرض والشرف.

وعن خطة السلام عام 1929م، حاول قريسياني إقناع المختار بمغريات معنوية ومادية وهدده بأنه سيضطر إلى القمع والإرهاب، لكنه رفض قائلا «لن أكون لأعدائي عميلا، بأن أجر السلام يعني الاستسلام، ووطني ودِيني يطالبانني بأن أواصل القتال ما وجدت إلى ذلك سبيلا «لأن هذا السلام كان خاليا من قيم الحرية وفيه دعوة لخلق تصدع في جبهة المقاومة وفيه كسب للوقت للاستعدادات العسكرية المعادية وفيه إغراء للمقاتلين وبالتالي المفاوضات لم تكن إلا خداعاً ونفاقاً.

حارب عمر المختار أعداءه رغم قلة عتاده وعديده بالنسبة لهم، وكان لذلك الأثر الكبير في تحرير ليبيا من المحتلين بعد ذلك؛ إلى أن وقع أسيراً عام 1931 بعدما هوجم من قبل الجيش الإيطالي غرب منطقة سلنطة لدى زيارته الصحابي الجليل رويفع بن ثابت، ونقل إلى سجن بنغازي وسط حراسة مشددة. وقد حوكم محاكمة صورية هزلية لم تعر أي اهتمام لمحامي الدفاع الذي تحدث عنه وعن أتباعه بكونهم يدافعون عن أرضهم قائلاً: «إن هذا الرجل ابن لهذه الأرض قبل أن تطأها أقدامكم، وهو يعتبر كل من احتلها عنوة عدوا له، ومن حقه أن يقاومه بكل ما يملك من قوة، حتى يخرجه منها أو يهلك دونها. إن هذا حق منحته إياه الطبيعة والإنسانية ... وإني آمل أن تحذروا حكم التاريخ، فهو لا يرحم»، وقد لخص المختار المقاومة بقوله أثناء محاكمته: «إنني أؤمن بحقي في الحرية وحق بلادي في الحياة وهذا الإيمان أقوى من السلاح». ورفعت الجلسة بحكم تعسفي قضى بإعدامه.

ونفذ الجيش الإيطاليّ حكم الإعدام في صبيحة يوم الأربعاء الموافق فيه السادس عشر من شهر أيلول عام 1931م. وها هو بمشهد مهيب يسير بخطاً ثابتة نحو منصة الإعدام، مرفوع الجبين، على الرغم من ثقل الحديد الذي يسربل قامته ناطقاً بالشهادتين، مستبشراً راضياً بقضاء الله وقدره مرددا: «صاحب الحق يعلو وإن أسقطته منصة الإعدام»، وقد سمعه بعض المقربين منه يرنم بصوت هادئ آذان الصلاة، رغم صوت الطائرات التي حلقت بأزيز مجلجل لمنعه من مخاطبة أنصاره. وصعد حبل المشنقة وهناك أعمل فيه الجلاد حبل المظالم. لقد استجاب الله دعاء الشيخ الجليل وجعل موته في سبيل عقيدته ودينه ووطنه، فلطالما كان يقول: «اللهم اجعل موتي في سبيل هذه القضية المباركة».

ويقال إن الطليان أرغموا الأهالي والأعيان المعتقلين حضور تنفيذ الحكم، كما حاولت الاستفادة من استشهاده، فعملت على استمالة المجاهدين إليها، وإقناعهم أن المقاومة ليس لها من فائدة ترجى. إلا أن استشهاد الشيخ الطاعن في السن الذي قاتل في سبيل بلاده ودينه استقطب انتباه الكثير من المسلمين والعرب الذين كانوا يعانون من الاستعمار، حثّ المقاومين على التحرك.

ولنا في عمر المختار عبرة وعظة حيث يستمر النضال ضد الظلم والجور والاستبداد، فلا تزال المقاومة مستمرة على قدم وساق، على الرغم من النكسات والخيبات التي رافقتها، سواء من عدو الداخل المتمثلين بأعداء الحق والحرية ... وعدو الخارج المتمثل بالاحتلال والظلم، والاستبداد، ونهب الخيرات، وشرذمة الإنسان وحقوقه، وهذا يعني أنّ الأمور لن ولم تتغير منذ القدم، فالصراع بين الخير والشر، كان وما يزال. وما أحوجنا نحن في هذه الفترة الحاسمة، إلى استلهام القدوة من معارك المختار وبطولاته، والصمود، والإيمان من أجل تحرير الأرض وإعادة المجد لأمتنا، والعمل على بناء وحدتها الكبرى لمواجهة كل التحديات من قيود وحصار مفروض عليها من أعداء الداخل والخارج .

وبالتالي فعلى الذين يناضلون من أجل التغيير، والحرية، والعدالة الاجتماعية، أن يكونوا متيقظين في جميع الأوقات، إذ إنّ الوعي ضروري وأساسي لنجاح مساعيهم. وإن خسروا بعض معاركهم فالوحدة والإرادة كفيلتان بتحقيق الأهداف المنشودة. وما زالت أصوات الحق تعلو من أجل الديموقراطية والعدالة الاجتماعية في جميع البلدان. ويحملنا هذا إلى الساحة العربية في عصرنا الحالي، ونبدأها مع الانتفاضة الفلسطينية، أول انتفاضة شعبية مدنية غير مسلحة في بادئ الأمر، وكثيراً ما حاولت الولايات المتحدة الراعية الأكبر للإرهاب احتواءها من خلال منح مزايا سياسية ومالية لطبقة البيروقراطيين المتنفذة داخلها، والتي ستمضي بالمقابل قدماً في التخلي عن نضالها وشعاراتها خشية أن يلهموا ويساعدوا إخوانهم العرب في الثورة على طغاتهم.

فجاء ردهم بثورات مضادة ومفتعلة، تعمل لمصالحهم وتحت شعاراتهم الزائفة والتي سرعان ما انكشفت أمام أحرار الوطن ومقاوميه، كما حدث في مصر، والجزائر، وليبيا، وتونس، والعراق، وسوريا، ولبنان، تحت مصطلح الربيع العربي، ويا له من ربيع... جلب معه الكثير من الويلات والخراب والهلاك، إذ دمرَ البشر قبل الحجر، ودمر معتقدات وأديانا وشرائع تحت اسم الدين، واستطاع أن يخترق الكثير من النفوس الضعيفة التي تلهث وراء السلطة والمال. ولكن المقاومة كانت وستبقى منارة بقوة رفضها للظلم والاستبداد، والعمل الدؤوب على نشر الوعي، ومحاربة التكفيريين، فالمختار لا يزال حيا بيننا بمآثره العظيمة وبطولاته الفائقة، ولطالما كان خير قدوة تلهم الأجيال في خضم الأحداث الجارية في الساحة العربية عامة، وفلسطين خاصة، وكثير من القوى والحركات أعلنت عن نفسها باسم عمر المختار، كالجهاد وحماس في فلسطين، وحزب الله في لبنان، والمقاومة الشريفة في العراق خير مثال على الإيمان العميق أن الحرية لا تؤخذ إلا بالجهاد والاستشهاد حيث العمل والصبر، فبأمثال هؤلاء المغاوير تستقيم الحياة وتصلح أحوالها، وبأمثال هؤلاء تهون الصعاب وتجنى الثمار، فهذه هي ثقافة الحياة الحرة الكريمة.